

أو قل اعتداء صارخا. وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى نجد فيه شخصاً يقف يازاء أمه - وقد لُبّت نداء ربها - ليرثيها وكأن كل كلمة فى رثائه تعبر عن دمعة تنحدر من عينه، فإذا هو يزك ذلك كله وما يتصل به من حشمة ووقار إلى مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله، وهو مظهر لا يتصل بالحنن ولا بالرتاء، وإنما يتصل بالفرح والسرور، كأنما يتحدث إلى أمه فى أحد أعياد ميلادها، وهى قائمة بين يديه تستمع إلى طرفه فتضحك، وقد تغرب فى الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعاً وأربعين سنة يحدثها عن ذكرياتها القديمة. وهذه المخالفة فى الموقف وما تنطوى عليه من مفارقة هى أساس فكاهة ابن سودون فى القطعة. وارجع إلى مطلعها فإنك تراه فى الشطر الأول من مقطوعته يكاد ينهد من حزنه انهداداً، فقد قوّسه الحادث وحناه. ولكنك لا تقرّ الشطر الثانى حتى تجد المفارقة، فإذا هو يذكر كيف كانت أمه "تلحسه لحس تحنين" وكيف كانت "تدلعه" خوفاً على "خاطره". ونستمر فإذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكرةً أنه كان حين يقول نمنم تأتي أمه له بالأكل وحين كان يقول أمبو تأتي له بالماء. رأيت صرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون؟ إنه لا يملى عليه إلا هذه الفكاهة وما يطوى فيها من ضحك فى موضع الرثاء وما يطوى فيه من حزن. ولا يكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقترن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقوهن ها ها ونحو ذلك. ثم يسرسل فى الحديث عن حنو أمه عليه وكيف كانت تكحله وكيف كانت "تحنينه" ثم كيف كانت "تشكشكه" وكيف كانت "تكشكشه". ثم يقص علينا كيف كانت "تحنينه" حين يهرب من الفقيه وأنها "زغرطت" يوم طهوره وزينته يوم زواجه. وأخيراً يعلن أنها خلفته يتيما ابن أربعة وأربعين سنين، كما يقول. وكل هذه مفارقات؛ فهو يتيم وهو فى الوقت نفسه ابن أربعة وأربعين، وهو باك وهو فى الوقت نفسه ضاحك، بل إنه ليضحك حتى يخرج بضحكه إلى هذا المنزل وما يتصل به من فكاهة. وفى أى